

## مستقبل إسرائيل في ضوء الزحف الأصولي إلى الحكم

2006/07/04

إن من ينظر إلى إسرائيل اليوم يرى أنها استطاعت تثبيت جودها في المنطقة العربية، والاستيلاء على حوالي ثلاثة أرباع الأراضي الفلسطينية، وامتلاك السلاح النووي، وبناء أكبر وأكفأ جيش في الشرق الأوسط، وإحكام سيطرتها على عملية صنع القرار السياسي المتعلق بالمنطقة العربية في واشنطن، وإجبار منظمة التحرير الفلسطينية وبعض الدول العربية على الاعتراف بها، ورفض كل القرارات الدولية المتعلقة بفلسطين دون عقاب. إلا أن تلك الانجازات لم تكن كافية لإحساس إسرائيل بالأمن، أو حصولها على الشرعية العربية، أو إقناع الشعوب العربية بقبولها كجار يمكن الثقة به والتعايش معه.

من ناحية أخرى، يلاحظ المراقب أن تجربة إسرائيل في بناء الدولة فرضت عليها التخلي عن حلمها في الاستيلاء على الأرض العربية من النيل إلى الفرات، والفشل في بناء المجتمع اليهودي "النقي"، وإهمال العديد من الأهداف التي قامت الحركة الصهيونية بالترويج لها ومن أجل تحقيقها. لقد كان شعار "من الفرات إلى النيل"، أي الادعاء بأن أرض إسرائيل تشمل كل فلسطين والأردن وأجزاء من العراق وسيناء هو الشعار الذي رفعته الحركة الصهيونية لسنوات طويلة، وبقي أساساً لبرنامج حزب الليكود. إلا أن ما تقوم به حكومة إسرائيل اليوم يتنافى مع هذا الشعار، إذ تعمل تلك الحكومة، والتي قام الليكود أصلاً بتشكيلها، على رسم حدود لدولة إسرائيل لا تشمل إلا حوالي 80% من أرض فلسطين التاريخية. لقد قادت المتغيرات الدولية، والمقاومة الفلسطينية واللبنانية، وضغوط إبعاد مصر عن حلبة الصراع إلى إجبار إسرائيل على تناسي حلم "من الفرات إلى النيل".

من ناحية أخرى، دعت الحركة الصهيونية إلى إقامة دولة تتيح لكافة يهود العالم التجمع في مكان واحد والعيش معا في ظل دولة لا يعيش فيها غير اليهود. إلا أن قيام شعب فلسطين بمقاومة الخطة الإسرائيلية، والتي استهدفت إلغاء وجوده وهويته واعتصاب ممتلكاته وتراثه، تسبب في فشل تلك الخطة. إذ بالرغم من تشريد حوالي 80% من عرب فلسطين من مدنهم وقراهم في عام 1948، إلا أن إسرائيل هي اليوم وطن لحوالي 1.2 مليون عربي، أي ما يعادل 20% من مجموع السكان. إلى جانب ذلك، تسببت المحاولات المتكررة لجذب يهود العالم للعيش في فلسطين في تسرب مئات الآلاف من غير اليهود الذين انتحلوا شخصيات يهودية هرباً من قسوة الحياة في بلادهم أثناء فترة انهيار الاتحاد السوفييتي وتكرر المجاعات في إثيوبيا والسودان.

إن اعتماد إسرائيل على الديانة اليهودية أساساً لحق الهجرة والمواطنة أدى إلى حصول رجال الدين على نفوذ كبير في المجتمع الإسرائيلي ساعد على نمو التجمعات الدينية غير المنتجة، وتغلغل الأصولية اليهودية وتعزيز مواقعها المجتمعية على حساب الفكرة الصهيونية ذات الفلسفة العلمانية. ولقد ساهم هذا بدوره في تشجيع المتدينين على تكوين أحزاب سياسية ساهمت في تعميق النعرة العنصرية. ومع تنامي الحركة الأصولية والعنصرية، واتجاه غالبية الساسة الإسرائيليين إلى التواطؤ معها، قام المتطرفون ببناء العشرات من المستعمرات في الضفة الغربية كعقبات تحول اليوم دون حل القضية الفلسطينية، وبالتالي تحرم إسرائيل من التمتع بالسلام والأمن والاستقرار.

كان من أهداف الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية بناء مجتمع اشتراكي يهتم بالزراعة ويحقق العدالة بين المواطنين. لكن الروح الاشتراكية ماتت في إسرائيل قبل انهيار الاتحاد السوفييتي وإفلاس الماركسية. ومع موت الاشتراكية، تفتت المجتمع الإسرائيلي إلى طبقات متفاوتة من حيث الدخل والعلم، ومختلفة من حيث الثقافة، واتسع نطاق الفقر، خاصة بين اليهود الشرقيين والأفارقة، وانتشرت الجريمة. وفي الواقع، أصبحت الدولة العبرية أحد أهم أسواق الرقيق الأبيض، ومتجراً مفتوحاً للدعارة وتبييض الأموال وتجارة المخدرات، كما أصبح الصراع بين المافيات العرقية ظاهرة إجرامية رئيسية في إسرائيل.

إن تنازل الدولة اليهودية عن جزء كبير من شعاراتها وأحلامها جاء على مراحل، مما جعل المجتمع الإسرائيلي يتكيف معها دون الإحساس بفقدان شيء يذكر، ويتغير تدريجياً ليصبح مجتمعاً رأسمالياً يهتم بالكسب المادي أكثر من أي شيء آخر، وتتصارع طبقاته وفئاته العرقية على تعزيز مواقعها على حساب بعضها البعض. لكن العنصرية اليهودية، والعنصرية العسكرية، وامتلاك السلاح النووي، والدعم الأمريكي الأعمى تسبب في شعور يهود إسرائيل بأنهم مجتمع لا يهزم، وقوة لا تقهر، وهذا أضعفهم

بعدم الحاجة للتفاوض بأمانة، والقبول بحلول وسط تحقق السلام والأمن لهم ولجيرانهم.

بينما كانت إسرائيل تعيش وهم العظمة والقوة، كان المد الإسلامي الأصولي ينمو كالإخطبوط من حولها. وبينما كانت سيطرة الدين على الدولة مقتصرة على إيران لسنوات عديدة، أصبحت تشمل اليوم فلسطين والسودان والعراق والصومال. إلى جانب ذلك، تشهد كل من مصر والأردن والسعودية ولبنان وسوريا والمغرب وعدة دول عربية وإسلامية أخرى تنامي المد الأصولي. وهذا ينبئ بغرق إسرائيل قريبا في بحر من الأصولية التي ترفض الاعتراف بالدولة اليهودية، ولا تقبل حتى مبدأ التفاوض معها، ولا تخفي نواياها للقضاء على الكيان الصهيوني. إن ترنج أمريكا أمام ضربات المقاومة وعمليات الإرهاب في العراق، واستعادة طالبان لزامم المبادرة في أفغانستان من شأنه أن يعزز المد الأصولي ليشمل باكستان النووية وغيرها من دول إسلامية ويضعف قدرة إسرائيل وأمريكا على المواجهة.

إن محاولات ترسيم حدود لإسرائيل دون موافقة الفلسطينيين لن تفيد، لأنها تنطلق من عقلية عسكرية تستهدف حماية الدولة من جيوش نظامية، بينما يكمن الخطر الأكبر في القنابل البشرية الموقوتة التي تتنامى أعدادها يوما بعد يوم، وذلك كرد فعل على الممارسات الإجرامية الإسرائيلية والسياسات الغبية الأمريكية. وما دام التهديد للكيان الصهيوني لا يشمل الجيوش العربية فإنه سيكون من المتعذر، ومن غير المجدي، بل من الحماقة، قيام إسرائيل باستخدام السلاح النووي لحماية حدودها.

كان أبا إبان يقول "إن الفلسطينيين لم يفوتوا فرصة لتفويت الفرصة" على أنفسهم، إلا أنه اعترف قبل موته للصحفي الإسرائيلي عاكيفا إدار أن إسرائيل "لم تفوت فرصة لتفويت الفرصة" على نفسها أيضا، أي أن إسرائيل أضاعت كل فرصة سنحت لها لتحقيق السلام. وفي ضوء تصاعد المد الأصولي في الشرق الأوسط عامة، وتنامي مشاعر العدا والكراهية لأمريكا، فإن المرحلة الحالية قد تكون آخر فرصة تسنح لإسرائيل لتحقيق السلام والحصول على تنازلات فلسطينية تاريخية. إنني لن أشعر بالحزن أو الندم إذا ما اختفت دولة إسرائيل من الخارطة السياسية، لكنني سأشعر بالحزن والألم لأن ذلك سيكون مصحوبا بقتل ملايين الأبرياء من اليهود العرب، وخنق كل مظاهر الحرية، وتكريس التخلف في الأرض العربية لعشرات السنين القادمة.